بقلم : بهجت حسين

بعض ملامح التطور الاجتماعي والاقتصادي في ريف لواء القدس

١٨٤٠ – ١٨٧٣ م

الفلاحون هم سكان الريف الذين كانوا ينقسمون الى احزاب عشائرية ترجع في اصولها الى قيس ويمن (١)، وقد اتخذ هؤلاء الفلاحين من القرية موطنا لهم ، وقد ضمت القرية عددا من العشائر ، والعشيرة بدورها تضم عددا من العائلات التي تميزت بشدة تماسك افرادها ، وحرصهم على التعاون في سبيل تأمين متطلبات حياتهم ، فقد كان الرجال من افراد هذه العائلات يعملون بالزراعة حين كان ابناؤهم يعلمون في الرعي . اما النساء فقد انصرفن الى توفير الحياة والطعام الذي كان يشمل الخضروات والارز وبعض اللحوم (٢) وقد استخدمت النساء في تحضير هذه الاطعمة اواني نحاسية متعددة (٣) ، كما كان يشد افراد العائلات الريفية شعور قوي بالعصبية القبلية التي كانت تظهر في حالة نشوب اي خلافات بين العائلات الريفية (٤) وقد ترأس كل عشيرة او عائلة شيخ او شيخان كانت تقع عليهم مسؤولية توزيع الاموال الاميرية المطلوبة من اهالي القرية ومسؤولية مساعدة عساكر الدولة في القاء القبض على المخالفين، ويبدو ان منصب الشياخة هذا كان اما وراثيا واما بتعيين الحاكم (٥) ، وكثيرا ما كان شيخ القرية يحسم بعض الخلافات المحلية بموجب قوانين وانظمة غير مكتوبة بل متعارف عليها من قبل الجميع (٦) .

١ – يرجع تاريخ الاحزاب القيسية واليمنية الى القرن السابع الميلادي حيث كان يطلق على الجماعات التي خرجت من اليمن الى الجنوب بصفة عامة – القيسية ، اما اهل الشمال فيطلق عليهم اليمنية ، وقد تميزوا بلباس العمامة فقد لبس القيسية العمامة الحمراء في حين لبس اليمنية العمامة البيضاء .
انظر ما يلي :
Finn, J: Stirring Times. Vol I. pp. 244 — 246

٢ – Wilson: Peasant life in the Holyland p. 78
Conder, R. Tent Work in Palestine p. 316—318

٣ – سجلات المحكمة الشرعية في القدس السجل رقم ٣٤٦ ص ٩٦ .

٤ – Wilson: Op. Cit. pp. 77—78

٥ – Grant: The people of Palestine p. 51—150

٦ – Finn, M: Palestine Peasantry p. 190

وقد قطن هؤلاء الفلاحون ببيوت بسيطة المعالم، فقد شملت القرية الريفية عددا من البيوت المتراصة جنبا الى جنب كانت تصل في عددها ما بين ٢٠ – ١٠٠ بيت تتكون اما حجرية في المرتفعات واما طينية في السهول ، ويلاحظ على هذه البيوت انها كانت خالية من الاثاث ما عدا الحصير الذى كان يغطي ارضية البيوت، وبامكان المتجول في القرية ان يشاهد معالمها التي تكاد تنحصر في بيت شيخ القرية المرتفع نسبيا وفي الاضرحة التي كانت تعتبر شيئا اساسيا في حياة الفلاح الدينية ، وغالبا ما تكون هذه الاضرحة اما لشيخ او درويش (١) ولم تكن الاسواق من المعالم في القرية – كما هو الحال في المدينة – بل كان الطريق الرئيسي في القرية مكان التقاء البائع والمشترى (٢) ، كما لعبت الدكاكين دورا في تأمين الحاجيات الضرورية لاهل القرية (٣) .

وفي نطاق الحديث عن المجتمع الريفي نتحدث عن الازياء التي لم تحدد الوضع الاجتماعي للفلاح في القرية فحسب بل حددت ديانته ومذهبه ومهنته (٤) ، فقد ستر الفلاح رأسه بعمامة بيضاء في حين لبس الاشراف منهم عمامة خضراء، كما ارتدى الاغنياء من الفلاحين قمباز او جبة وارتدى الاخرون ثيابا طويلة من الكتان ، اما النصارى في الريف فقد تقلبوا في لباسهم بين الثياب الطويلة والسراويل القطنية ، وكما اختلفت ملابس الفلاحين النصارة عن ملابس الفلاحين المسلمين كذلك اختلفت ملابس الفلاحات من كلا الطائفتين في القرية، فقد ارتدت المرأة المسلمة الثياب الزرقاء – ليست بطول ثياب الرجل – دون غطاء للوجه بل بغطاء للراس من القماش الكتان الابيض ، اما المراة النصرانية فقد ارتدت ملابس من الشيت القطني المربع ، وقد اضفت المراة الريفية مسحة من الجمال على نفسها باستخدامها الكحل للعينين والحناء للاطراف (٥)

١ – Conder: OP. Cit p. 216

٢ – Crant: OP. Cit p. 145

٣ – Wilson: OP. Cit 74

٤ – عبد الكريم غرايبة : سورية في القرن التاسع عشر – دار الجيل للطباعة – القاهرة ١٩٦١ ص ١٢٧ .

٥ – Conder: O.P Cit. pp. 298—328